رحلة العودة

قصة بقلم يوسف شرورو

الساعة الصغيرة في معصمي تفح كالافعى . الانتظار قاس وكئيب ، الوجوه المتعبة تستلقي فوق المقاعد الطرية . مضيفة الطائرة عذبة العينين ، تعبة الابتسامة . الوقت مساء والطائرة ستهبط بعد دقائق في مطار العاصمة العربية . هنا عشت سني مراهقتي وشبابي . لم أشعر بالوحدة قط ، كانت الوجوه تبتسم لي بدعوة حلوة كلما مررت في شارع من شوارع هذه العاصمة . كانت أرصفتها مليئة بقامات الاصدقاء . ما زلت أحب هذه المدينة ، ففيها عرفت معنى الارض ، ومنها خرجت لاعمل من أجل الارض . كتبت لاخي نافع منذ أيام :

ـ سأراك يوم الخميس القادم في السابعة والنصف فوق ارض المطار ، أنا لا أعيش ، فالمقاومة تعيش عندكم ، ومن لا يقاوم فهو لا يعيش .

أظن بأن ساعتي توقفت من تأثير الشوق ، قلبي يرفرف بجناحيه لعصفور أزرق صغير . ارض المطار الصلدة تبهرني ، تجعلني أندب عمرا أضعته في مدن شوارعها واسعة عريضة . المضيفة العذبة تسوي خصلات شعرها الاسود الفاحم . كم تمنيت لو أمرر أصابعي بين خصلاته . جريدة انكليزية ابتعتها من مطار لندن هذا الصباح ، تنام في المقعد الملاصق لي .

فجاة ، جاء صوت قبطان الطائرة تعبا ، من خلف المكبر، ليقول :

ـ أهلا وسهلا بكم في عاصمتنا .

ابتسمت بفرح ندي ، بعد دقائق سأرى أخي وأقبله ، سأحدثه عن أشياء كثيرة ، عن الاثم الذي يأكل من عظامي كل يوم ، عن الحنين لوجوه الاصدقاء الذين يعملون ، عن حبي لعينيه الخضراوين ، عن قراري المفاجيء بالعودة ، عن الهزيمة التي ما زالت قابعة في عيني ووجهي ، عن الروعة في أن يموت الانسان من أجل ارض يؤمن بها ، سيموت وعلى وجهه ابتسامة غنية بالكلمات .

علقت حقيبتي بيدي اليمنى وسرت ، رأسي يؤلمني ، وجوف الطائرة يدور في ، خذني أيها السلم الحديدي الى أرض عربية ، أقسم بانني لن أعود الى حياة المدن الكبيرة الكبيرة ، بيتي كان هنا منذ سنين طويلة ، كنا ندفع أجرته الشهرية بتعب مضن . أرض المطار معدومة الحركة ، وضابط شرطة يقف بجانب سلم الطائرة كرمح عتيق ، وجهه لا يعرف معنى الابتسام . لماذا لا تبتسم وجوه الضباط في بلادنا ؟ تساءلت : « هل هذه عادة عربية ؟ »

ليتني أعرف . عندما مررت بجانبه قلت بأدب :

ـ مساء الخير .

لم يقل شيئا ، نظر الي كأبله . سرت كذبابة كسيحة . ضابط الجمرك طلب مني ان افتح حقيبتي ، وبدأ يلعق بعينيه الدبقتين ، محتوياتها . توقف ليسأل عن كتاب باللغة الانكليزية يحمل فوق غلافه صورة لجيفارا . قلت بانفعال عصبي :

ـ هذه مذكرات جيفارا قائد الثورات ، طبعت حديثا في لندن .

رمقني بنظرة غضب وفكر ، وهرش باصبعه مؤخرة رأسه ، وبعد دقائق ألقى قراره العتيد : ـ طيب رح ، مع السلامة .

تذكرت أمي عندما سافرت معها منذ سنتين من هذا المطار . كنت غضبا تتطاير كلماتي على صفحة وجه الضابط ، وهي بجانبي ترتعش خائفة وهامسة :

ـ لا يا سهيل ، لا تحنق على الضابط ، لانه سيضعك في السجن ، اضبط أعصابك ، هكذا يعاملون الناس هنا .

وعدت الى نفسي ، خطوات ، وأشاهد هذه العاصمة التي تشبه الليلة الحزينة ، وتنفتح ابتسامة وجهي ، وأعانق أخي ، سيحملق في عيني لحظات ثم يلقي بأولى كلماته .

المطار يشبه غرفة مستطيلة كبيرة ، تجاورها غرف أخرى لا أدري ماذا تحتوي بداخلها ، فقيرة هذه المدينة وعارية ، صورة جديدة لشعار جديد تمتد على صفحة الجدار . منظر الوجوه هنا لا يصلح للوحة زيتية ، وجوه خالية من التعبير ، مسحت سنوات الهزيمة تعابيرها . وجه أخي يبرز فجاة أمام عيني ، مثل كشاف ضوئي ، صارم كانسان عاش تجربة مكثفة قاسية . لم تبتسم عيناه . لم يفتح ذراعيه لمعانقتي . كان يقف كمسمار دق في خشب الجوز . توقفت قليلا وتساءلت : « هل هذا هو أخي الصغير نافع ؟ »

قال حين شاهدني اقترب منه : ـ اهلا سهيل ، لماذا عدت ؟

ـ لكي أعمل معكم .

ارتعشت عضلات وجهه وهو يستمع الي ، وحرك يده ليحمل حقيبتي الى السيارة ، واخيرا كنا معا في سيارة صغيرة سريعة ، فوق مقعدها الخلفي تراكمت أكوام من المنشورات والصحف ، وحذاء حربي علاه الطين الاحمر الجاف ، وبنطلون بلون زيت الزيتون ، وغليون قديم .

الطريق الى قلب العاصمة ما زال مشجرا . كنت أراجع دروسي هنا منذ سنين عشر ، تعرفت في هذا الطريق على الاسكندر الكبير ، وسافرت مع نابليون في حروبه الاوروبية ، وحاربت مع صلاح الدين بالقرب من أبواب القدس ، ولم أصافح يد محمد علي وولده ابراهيم باشا الا بالقرب من أسوار عكا الصامدة ، وهنا تعرفت الى الفلسفة والمنطق وعلم الاحياء ، وأحببت فتاة صغيرة كانت تعشق اللون الاخضر ونجوم والدها الضابط الكبير ، وانتسبت الى حزب اشتهر أفراده بكلماتهم الكبيرة الضخمة ، وهنا عرفت أيضا معنى أن يكون الانسان بلا أرض تحمل أسمه ، وهنا كنت أتساءل دوما :

ـ لماذا نخسر الارض والاخوة والاصدقاء باستمرار ؟ لماذا تبقى عيوننا وحيدة تبحث عن عيون أخرى كانت قد هجرتها وتلطخت نظراتها تتسول دفئا وحبا وأرضا تنام فوقها ؟

أخي نافع كان صغيرا عندما كنت أسير فوق أرصفة هذا الطريق المشجر ، أردت أن أحطم طوق الصمت فقلت له :

ـ لماذا لم أستلم ردا على رسائلي اليكم ؟ لم تكن رسائل شخصية أبث فيها عذاباتي التي أعيشها . كنت دوما أطلب منكم أن تتخذوا قرارا بعودتي ، فالاثم يأكل من عظامي . أريد أن أعمل مثلما تعملون .

قال وهو ينظر الى الطريق المنسطح أمام السيارة :

ـ الوالدة تنتظرك في البيت ، طلبت منها أن لا تأتي الى المطار لاستقبالك ، أنت تعرف أنها مشتاقة اليك ، أنت لم تعش معنا كثيرا ، تغربت وأنت صغير ، سنوات العمر الطويلة لم تبدل من وجهك

نافع في الخامسة والعشرين من عمره ، يصغرني بأربع سنين ، كان طالبا يحضر للشهادة المتوسطة حين تركتهم للعمل في بلاد مجاورة

طيبة ، ذقت فيها طعم الصداقة والثقافة ، كنت أقرأ بنهم ، وأعرق حتى تتيبس ملابسي ، وأكتب رسائل طويلة لا أستطيع كتابتها الان ، فقد ذبلت الكلمات وتهشمت .

كان أخي في هذه العاصمة يدرس ويجمع الاصدقاء للحديث وللعمل من أجل الارض ، ومرة عدت لزيارتهم في هذه العاصمة ، لاجد الشباب يعملون . وشرحوا لي القضية ، وكان من تولى لشرحها أخي عبد اللطيف الذي أصبح ضابطا في الجيش ، وذهب ليحرس مع جنوده خط النار ، لمدة عام واحد ، ثم استشهد في نيسان اللعين ، نيسان الكلب المسعور بين الاشهر ، أنا أمقت نيسان فقد اختطف منا وجها حبيبا . كم أتمنى لو يسقط هذا الشهر قتيلا ، ففيه يهجم الطاعون .

أذكر البرقية التي وصلتني يوم استشهاده وما زلت أذكر كلماتها :

ـ وجه عربي جديد يسقط في درب العودة . لقد مات أخوك عبد اللطيف .

ومنذ ذلك اليوم وأمي تسكن بالقرب من قبره الابيض الرخامي ، المسور بسور حديدي أخضر ، كتبت فوقه ثلاث كلمات « فداء ، ثأر ، فعودة » .

رأيت صورته الكبيرة المبتسمة يوم عيد الاضحى ، تنتصب فوق قبره ، جعلتني الصورة أبكي ابتسامته ، وأبغض نفسي ، فانا لم أعمل شيئا سوى الحديث عن الفداء ، والشباب وهو معهم ، ما زالوا يقاتلون من أجل الفداء .

التفت الى نافع وقلت بلكنة غريبة مشوبة بالكآبة :

أرجوك أن تأخذني لزيارة قبرعبد اللطيف قبل أن نذهب الى البيت

بنايات المدينة تبدو كالحة قديمة ، وشوارعها تتلاعب فيها قصاصات الصحف ، وقشر البزر الابيض ، كأن وجه هذه المدينة تهدل وأصابه الهرم دفعة واحدة . العتمة تأتيها من الخارج وتستقر في داخلها ، أناسها يعيشون بخوف وبلا يأس ، ونافع يقول فجأة :

ـ الشباب في انتظارك ، قرار عودتك المفاجيء أذعجهم ، وهم يريدون رؤيتك الان .

ـ عندما كنت أقرأ أخباركم في الصحف الانكليزية ، كنت أجد نفسي قذرا قزما ، أريد يا نافع أن أتبعثر الى ذرات صغيرة صغيرة ، أريد ان اموت من اجل الارض التي احملها فوق كتفي ، أنا لا أحلم ، فالحلم يخدر طاقة العمل في الانسان ، وأنا حلمت لمدة طويلة ، أريد أن أعمل الان ، كم اود لو تفهمني يا نافع ، فأنا أريد أن اقضي العمر كسولا ، أتحدث بالإنكليزية عن قضيتنا للناس هناك ، وأراقب التلفزيون ، وأرى خيالات حياتي الفارغة .

قال نافع بصوت صارم لم أحبه :

ـ قرار عودتك سوف يناقش من قبل الشباب بعد قليل ، أنت فرزت للعمل هناك ، وعدت الينا دون قرار قيادي بعودتك ، عندما تقابل الشباب حاول أن تقنعهم .

سارت السيارة فوق طريق أعرفه جيدا ، قبعد قليل سنكون في « المقر » كما تعودنا أن نطلق على البيت الذي استأجرناه هنا منذ سنين أربع ، والمقر هو المكان الذي يجتمع فيه الشباب للمناقشة أحيانا ولاصدار القرارات وكتابة المنشورات . ببوتات هذا الطريق ، طينية صغيرة ، تلعب فيها العصافير الغارة من وهج الشمس ، والسيارة الصغيرة تهتز بنا كقارب اصابه خلل ، وأنا أنتقي كلماتي حتى أقنع الشباب برأيي ، ونافع يحاول ان يركز اهتمامه على قيادة السيارة . وحدثت جنازة كلمات كبيرة في عقلي ، وانفتحت العيون دهشة ممزوجة بالفرح ، وانشق صباح ، أعقبه ليل بشع ، والسيارة تتأرجح من صفع الطريق ، وأنا أحملق في البيوت الطينية خوفا من جنازة الكلمات ، فالسماء كئيبة رمادية الوجه لا عيون تلمع فيها ، ووجوه الشباب قاسية تريد أن تؤدبني ، يجب أن لا أتخذ قراري بنفسي ، علي أن التزم بالتنظيم العام الذي يضمنا جميعا . وانفتح باب المقر ، وبدأت أشعر بالرهبة لاول مرة ، ولاول مرة آمنت بأن العمل الثوري يجب أن يتبع تنظيما قاسيا وسرية تامة ، وقرار عودتي يخالف رأي الشباب الذين سأقابل وجوههم بعد لحظات .

وانفتح باب آخر على حجرة واسعة ، في زاويتها اليمنى تنتصب طاولة خشبية دون غطاء ، وحولها اصطفت ثلاثة وجوه أعرف أصحابها جيدا ، فقد عشنا زمنا طويلا معا ، عند رؤيتي نهضوا جميعا لمصافحتي وقال ابو باسل وهو يبتسم ابتسامة لم أستطع تفسيرها :

ـ أهلا ببالاخ سهيل ، الحمد لله على السلامة .

واقترب مني وعانقني عناقا حارا ، شاهدت دموعه تتجمع في عينيه وترتعش ثم تقدم احمد لمصافحتي ، وتبعه صلاح ، وترددت نفس الجملة ، « أهلا بالاخ سهيل الحمدالله على السلامة » ، وجلسوا حول الطاولة التي توسطها نافع ، وجلست أنا قريبا منهم ، أنظر الى وجوههم الهادئة ، بعد قليل ستنهمر الكلمات نحوي ، وسأحدثهم عن التفتت الداخلي ، وأمنية العودة التي تطاولت داخل عقلي ، وعن ليالي الحزن والعفونة والدوار اللندني ، لقد مات زمن الكلمات أيها الاخوة ، أريد أن أقذف النار من عيني على كل انسان يحاول ان يقف في طريق عودتنا الى الارض .

لم لا ؟ سأحدثهم عن الفزع الحقيقي الذي بدأ يعيش ويتوالد داخلي بعد حزيران الهزيمة . دوما أجد نفسي محصورا داخل جسدي لا أستطيع أن أنطلق بعيدا ،فالتعب والظلام النفسي المرعب ساعدا فزعي الحقيقي على الانبعاث . وأنا كأي انسان آخر ، عندما يظللني ضباب عدم الرؤيا الحقيقية ، أجد العالم رمادي اللون ، يكتنفه الظلام كالليل الخصب الذي يولد أحاسيس الانسان القلق ، وكعادتي السخيفة دوما أجد نفسي أعطي الاهمية والانتباه لشخصي أنا ، ثم أجد أن مشكلتي لا أهمية لها ، وانا تافه كامرأة أعطت نفسها لانسان لا تحترم ، ولهذا قررت أن اعود . أريد أن أغتال عذاباتي الشخصية أريد أن تتحول عذاباتي انا الى عذابات الشباب جميعا . وبعودتي أردت أن أذيب العذاب وأجعله يتبخر .

في السابق كنت أفكر بأنني زودت نفسي لمجابهة الحياة ، فقد حصلت على شهادة الدكتوراة في التاريخ الحديث ، وبعد أن فرغ الاساتذة من مناقشتي في موضوع رسالتي ، عرضوا علي العمل كأستاذ مساعد لمدة سنة تحت التجربة ، فقبلت . أشغل الان منصب أستاذ التاريخ الحديث في الجامعة ، ووجوه الشباب حول الطاولة ذكرتني بوجوه الاساتذة الذين ناقشوا موضوع رسالة الدكتوراة .

وفجأة قال أبو باسل بلهجة قائد :

ـ هل استلمت قرارا نطلب فيه عودتك يا اخ سهيل ؟ ام ان تصرفك هذا تصرف فردي ؟

ـ لا ، ولكني أريد أن أبتسم عندما أموت اريد ان اموت من اجل الارض ، لا أريد أن أموت مثل كلب ، وأنا أستطيع أن اموت من اجل قضية .

قال أحمد وهو يعتدل في جلسته :

ـ يجب أن لا نتحدث عن الموت بهذه البساطة يا أخ سهيل، فنحن لا نستطيع أن نهدر الارواح بهذه السهولة . قطرات الدم غالية لانها نادرة ، أما حبات عرقنا فهي رخيصة ، وأنا أعني أن العمل في أي مكان ، هو عمل من أجل الثورة .

قلت بغضب : ـ اسمع يا أخ أحمد ، لا أريد أن أناقش في موضوعات ناقشناها طيلة سنواتنا السابقة ، الثورة يجب أن تنطلق من الداخل ، من هناك ، من الارض ، وأنتم هنا أقرب مني الى الارض فأنتم تذهبون هناك وتتحدثون وتقاتلون ، أما أنا ، فأحدث شعبا ما زال لا يعطف على قضيتنا ، وأقرأ الصحف ، وأترجمها لكم ، وأراقب التلفزيون لاقدم تقريرا طويلا ، أنا لن أكون ثوريا ما دمت اعيش في لندن ، اقود سيارة سريعة جدا ، وارتدي ملابس انيقة ، وافكر في عذاباتي الشخصية .

وهنا تدخل نافع ، وطلب مني أن أستمع الى رسالة أرسلتها اليهم منذ أربعة أشهر أحدثهم فيها عن طلبي المتواصل بالعودة للعمل من الداخل .

بدأ نافع يقرأ بصوت صارم ، هذا الصوت الذي لم أعرفه فيه من قبل :

« منذ سنوات خمس جئت الى هذه المدينة لكي أدرس التاريخ في جامعتها ، ثم أصبحت أحاضر فيها ، الراتب الذي أتقاضاه في نهاية كل شهر يكفي عائلات عشرا لتغطي مصروفها الشهري ، استأجرت شقة صغيرة ، زينتها بالكتب واللوحات الغالية الثمن ، خزانة ملابسي ألقم فمها كل يوم بشيء جديد ، وفي الكاراج تقف سيارتي السريعة جدا ، ولي أصدقاء وعشيقات ، ومخابرات هاتفية تسأل عني ، وغليون بجانبه تبغ هولندي فاخر . أشتري أحذيتي من روما ، وأحيانا أذهب الى باريس لانتقي مجموعة من ربطات العنق الانيقة، ففي الصفوف التي أحاضر فيها تنصوب عيون الفتيات النضرات الي ، أنا تعديت التاسعة والعشرين ، لم أتزوج فانا أعشق الحرية ، لي أهل وعائلة وأصدقاء ما زالوا يكتبون الي . اسمي أصبح مشهورا في مطاعم ومسارح الدرجة الاولى هنا ، وجهي ترتسم عليه علامات اثم ووحدة ، وفي العينين حنين قاتل لشيء أعرفه وأحاول أن لا أعرفه ، ففي الصباح ، كل صباح ، تنزف دماء الاصدقاء عبر النهر هناك ، أو يساق شاب جديد ليقبع في زنزانة جديدة ، وتسير السيارات المصفحة تحمل الموت لتصوبه الى صدور الشباب هناك ، وأنا أسير هنا منكسا رأسي خجلا ، أريدكم أن تتخذوا قرارا سريعا بعودتي ، فالاثم يأكل من عظامي ، ويقتل الحياة في ، فأنا لا أعيش كل الحياة الا عندما أعيشها معكم . أرجو أن أستلم جوابا سريعا على رسالتي هذه . أريد ان اعود . »

فجأة قال صلاح بصوت مؤدب :

ـ الحقيقة تقال بأن سهيل كان يتعذب وهو يعيش بعيدا عن العمل الحقيقي .

أجابه نافع بنبرات غاضبة :

ـ لا مكان للعذابات الشخصية بيننا ، فالانسان لا يستطيع أن يكون جزيرة مستقلة بنفسه .

قلت بسرعة وبفرح :

ـ هذا صحيح يا نافع ، أنا لا أريد أن تكون لي عذابات شخصية أريد أن اغتالها واقتلعها من نفسي ، ولذا قررت أن أعود لاعمل معكم في الداخل ، أنا لا اريد ان اكون جزيرة ، وجودي هناك يجعلني جزيرة ، أشعر بشعوركم ، وأتحدث للناس هناك ، ولكن يا نافع لقد مات زمن الحديث ، وزمن الشعور ، الحركة هي المنقذ ، وأنا أريد أن أتحرك لكي أنقذ نفسي من قذاراتي وتفاهتي ، فالانسان سيبقى تافها ان لم يشترك فعليا في عملية الثورة .

وهنا استلم أبو باسل زمام المناقشة ليقول :

ـ ولكنك عدت دون قرار منا ، وهذا يعني العقوبة ، فنحن لا نريد التصرفات الفردية .

أبو باسل كان برتبة عقيد في جيش عربي ، كان يحبني ويحترمني ونسهر معا حتى الساعات الصباحية الاولى نتحدث عن كل شيء ، وهو الذي عارض وما زال يعارض قرار عودتي لايمانه بأن العمل من اجل الارض يتطلب أشخاصا يستطيعون شرح القضية للناس في عواصم العالم ، وهو لا يريد أن تموت أمي حزنا ان قتل ولد آخر لها فوق أرضنا الحزينة ، وقد وعد أمي بهذا :

ـ سهيل يا حاجة سيبقى هناك بعيدا عن القتال .

أما أحمد فكان يطلب عودتي ، فأنا أستطيع قراءة الصحف الانكليزية وترجمتها في أي مكان ، والشباب المقاتل عدده ضئيل ، والفداء يجب أن يكون بعيدا عن العاطفة ، وماذا لو مت أنا أو أخي نافع ؟ فسوف تزور أمي قبرين في آن واحد . أما صلاح فقد كان يؤيد قرار عودتي لحبه الشخصي لي ، وأحاديثنا الطويلة معا ، يوم كنا طالبين ندرس في صف واحد ، وأخي نافع يعارض بشدة في أن أعود ليكتسب صرامة جديدة ، وشهرة واسعة في الحزم . وأبو باسل يوجه كلماته الي هادئة هامسة عبر الطاولة الخشبية في المقر الطيني :

« اسمع يا سهيل ، قبل مجيئك كنت أتحدث مع نافع عنك وعن رسائلك الطويلة الحلوة ، وكان الرأي أنك لن تقتل عذاباتك الشخصية الا عندما تهب نفسك بصدق للعمل . والدتك تفكر بأن السماء التي فوق رؤوسنا قد ساعدت في صنع قدرنا . أنت وأنا والشباب هنا ، والحياة والوجوه التي نقابلها كل يوم ، هي من يصنع القدر الان ، وأنت تعرف أن قدرنا قد صنع منذ أن تبعثرت خطواتنا فوق ارض لا تحمل اسمنا ، وعشنا في بيوت ندفع أجرتها في نهاية كل شهر ، وكما تذكر ، فقد فكرنا معا منذ سنين أربع بتنظيم الخطوات والطاقات وقمنا بحركة صغيرة ، وآمنا بالفداء ، والثأر ، والعودة . وانتشرت مجموعة الشباب هنا ، وكنت أنت من الذين يصرون على قسوة التنظيم وسريته ، ولذا طلبنا منك أن تبقى هناك ، فوجودك هناك له فوائد كثيرة ، أنت تعرفها ، وعليك أن تبقى في لندن حتى تفرز لعملية أخرى ، الكل يستطيع أن يطلق طلقات سريعة من رشاشه الصغير ، ويقذف بقنبلة ، حين تنتهي فترة تدريبه . أنت تعرف أن الطلقات أكثر مفعولا من الكلمات هنا ، ولكننا ما زلنا نؤمن بأن الناس في أوروبا ، يحتاجون للكلمات الشارحة الدالة ، حتى نبين لهم عذابات شعبنا الطويلة ، الكلمات البعيدة عن النباح والضوضاء والجعجعة الفارغة ، والعاطفة السامة .

لم تتعذب يا أخ سهيل وأنت ما زلت تعمل معنا حتى ولو كنت هناك ؟ فزمن الحزن والعذاب قد مات يا أخي ، كل الثورات يرفدها العدد الكافي من الرجال ، ونحن كما تعرف شعب يتوالد بكثرة تساعد على استمراريته ، ولن يتوقف توالد شعبنا يا سهيل حتى ولو انتهت عذابات مرحلة التحرير ، فنحن نريده أن يستمر ليبني بلده من جديد ، وسوف تكون معنا ، كما كنت معنا دوما . »

قال نافع بلهجته الصارمة :

ـ هناك طائرة تقلع غدا ، الساعة العاشرة والربع ، وقد حجزنا لك مقعدا فيها ، عليك أن تعود الى لندن وتبقى هناك حتى تفرز لعملية أخرى ، وسوف يأخذك صلاح بسيارة « الميني » السريعة الى مطار عاصمة عربية أخرى ، ومعنى هذا أنك ستقضي ليلتك نائما بالسيارة ، وان أردت أن تبقى هنا ، فسوف نضطر الى اصدار قرار بطردك .

اصابتني صدمة قوية . أردت أن أبكي ، فأنا لم اتصور انني سأعامل بكل هذا العنف « بحثت عن لفافة تبغ » قدم لي صلاح واحدة منها ، فاشعلتها وسحبت نفسا طويلا عميقا . وبرزت وجوههم يابسة قاسية امام عيني . يا لله ! ما الذي غير تفكيرهم ؟ كل الكلمات التي طرزتها في عقلي ماتت الآن ، وحدثت الجنازة امام عيني في هذه الغرفة الطينية العارية . وانشق صباح اعقبه ليل بشع . الطاولة الخشبية أصبحت تابوتا يحمل جثتي العفنة « ليلقي بها في نهر » التيمز ، اللندني ، لم أعامل كجندي هارب من الخدمة ؟ لقد تعاونوا على ابعادي . أريد أن اكون هنا لاعيش كل الحياة مع الشباب في داخل الارض . ولكن صدر قرار النفي العنيف ، وعلي أن ارحل من جديد ، فأنا خالفت الاوامر ، ولا اريد أن أصبح بداية لنزوات فردية .

سأرجع الى لندن ، وسأتابع الحياة هناك ، أحدث الناس ، وأقرأ الصحف الانكليزية ، واقطع قصاصاتها ، واتسمر بجانب التلفزيون ، وابكي كامرأة كلما شاهدت خريطة بلادي في غرفتي . سأنتظر قرار فرزي لعملية أخرى ، يجب أن أتبع التنظيم ولا اخالفه،

قلت بصوت صارم جديد لم أعهده في من قبل :

ـ سأرحل بطائرة الغد ، وسأعمل كما كنت أعمل ، آسف لازعاجكم .

عندي رجاء : أود أن أذهب لرؤية الام ولو لفترة قصيرة .

قال نافع وتنهيدة متوسلة في صوته :

ـ لا ، أرجوك . فسوف تحرق الدموع عينيها عندما تراك . سأخبرها بأنك أجلت موعد مجيئك الى الشهر القادم .

وفتحت فمي لاقول : ـ ولكن . . .

ـ أرجوك يا سهيل .

وخرجت بصحبة صلاح من المقر الطيني ، وبحثت من جديد عن لفافة تبغ ، ناولني واحدة ، وفتح لي باب السيارة ، شعرت بفرح عميق يغسلني ويزيل عني عذاباتي ، فأنا انتمي الى هؤلاء الاخوة الذين لا ينفعلون بحمق ، ولا تبكي عيونهم من العاطفة .

وسارت السيارة في نفس الطريق الذي اعرفه جيدا . فبعد ساعات سنجتاز حدود دولة عربية ، وستحملني طائرة نفاثة لتحط بي في لندن من جديد .

قال صلاح وهو يناولني لفافة تبغ جديدة :

ـ خذ هذه يا سهيل ، يعلم الله ان كنا سندخن معا مرة اخرى أم لا .

لندن

يوسف شرورو